١٥-حياة أخرى

لم يعد هناك مزيدٌ من الحياة منذ الدرب القاحل ولا أي شيء آخر، لا أشجار، لا عشب، لحسن الحظ مروا بما يشبه المحل الصغير الذي يبيع الأغذية والسلع للبؤساء الذين يسافرون عبر الدرب القاحل، وكذلك يوجد تفرع من النهر صغير يكفي لإرواء عطشهم وعطش الفرس، وعلى الرغم من ذلك التفرع لا توجد حياة إطلاقا، ماذا حدث في هذا المكان؟! هل كان بشعا لذلك الحد، قرأت كثيرا عما أصاب هذا المكان، لكن لم تحسب أنه سيكون أسوء مما ذكرته الكتب أو حتى بسوء ما بالكتب، تخيلت أن ربما الحياة قد عادت له بشكل أو بآخر وإن الحرب مع إخوة الظل لم تتسبب في هذا الخراب، ترى كيف كان هذا المكان قبل أن يطأ الشعبان هذه الأرض ويقررا أنهم سيأخذونها عنوة؟ فكرت لوهلة ربما إخوة الظل لم يكونوا بذلك السوء، فهم لم يفعلوا شيئا سوى الدفاع عن أرضهم من الغزاة، لكنهم خسروا كل شيء، لا أحد يعلم حتى ماذا حدث لهم ليختفوا تماما بهذا الشكل، حصدوا انتقامهم بالمرايا لكن أين هم الآن؟! ربما جدر بهم الاستسلام فحسب، ربما لظلوا على قيد الحياة حتى الآن، من يدري؟

"ليليس"

قاطع صوت العالم ران أفكار ليليس، أشاحت بنظرها عن الفرس الذي كان يروي عطشه بنهم ناظرة للعالم باستفهام.

"إنها ثالث مرة أناديكِ فيها"

يا لغبائها لقد هامت بخيالها مجددا، تشعر في بعض الأوقات أن أصغر الأفكار فحسب، ستقود تفكيرها لأسئلة وتحليلات لا تنتهي لتنسى كل الموجودات من حولها تماما وتصير في عالم مختلف تماما.

"آسفة للغاية أيها العالم، لقد.. كنت أفكر فحسب"

"لا بأس، هل ارتوى الفرس؟"

نظرت للفرس الذي كاد ينهي شربته ثم أردفت وهي تتجنب النظر إلى عيني المعلم:

"أأأ.. أحسب ذلك"

"حسنا، فلنكمل السير واحرصي على أن يتبعنا"

"حسنا، أأ.. كيف حال قدمك الآن؟"

تساءلت وهي تتجه للفرس وتمسك بلجامه لتحركه جوارها، كانت قدم المعلم قد جُرحت بخنجر ذلك الشخص الذي حاول الفتك بهم في الدرب القاحل، لكنها قامت بتضميدها حسب تعليماته بما توفر لديهم.

"تؤلم لكني لن أموت"

شعرت بقلبها يعتصر لمجرد التفكير في آخر كلمة قالها المعلم، لكنه على ما يرام، أعادت تلك الخاطرة الاطمئنان لبالها، أخذت تتساءل متى سيصلون لوجهتهم وتنتهي كل تلك المتاعب؟ لم يتبقَّ كثيرٌ حسب ما قاله المعلم، وقد أراد أن يريح الفرس قليلا من ثقلهما، لذا وجد أنه من الأفضل ألا يركباه حاليا، هذا الفرس قوي حقا لأنه تحملهما وهو يقتات كل تلك المدة على أقل القوت، فهي

تشعر أن دهرًا قد مر منذ حادثة الدرب القاحل تلك، منذ هروب الحارسان وتركهما للموت مما اضطر المعلم لترك العربة التي احتوت على أغلب الطعام كي يستطيعا الفرار من ذلك الشخص الذي أراد قتلهما، الحارسان الآخران أحدهما مات على يد ذلك القاتل، والآخر لا تعلم ما أصابه، ربما هو من أنقذها من الذئب. لذا أراد المعلم الوصول لوجهتها سريعا، والتخلص من ذلك الطريق المشئوم وترتب على ذلك إرهاق الفرس بصورة كبيرة، سارت ليليس الآن بجانب المعلم وبرفقتها الفرس، نظرت له بحزن ثم نظرت للأرض سريعا، هي السبب في كل ذلك، هي من اضاعت أموالهم، هي من كادت ان تقتلهم في الدرب القاحل، لماذا لا يمكنها التوقف عن التسبب في إحداث المشكلات فحسب؟! ليتها كانت شخصا آخر، أي شخص آخر سواها، تذكرت ذاك اليوم، الذي اشترت به القلادة ذات الزمردة الخضراء كي تسعد المعلم، لكنها حتى ذلك أخفقت فيه، تذكرت كيف استقبل المعلم الخبر وهو يمسك القلادة في يده غير مصدق ما يسمع، ثم يضع القلادة جانبا في أحد أرجاء غرفته ويهرع للخارج دون أن ينظر لها ليتحدث مع الحراس ليجد حلًّا لما تسببت به.

"هل أنتِ على ما يرام؟"

تساءل المعلم وهو ينظر لها بقلق، فنظرت له بغير فهم:

"أتشعرين بدوار أو عدم اتزان مجددا كالذي حدث بتلك الليلة في الدرب القاحل؟"

يا له من رجل صالح حقا فعلى الرغم من كل أخطائها فمازال قلقًا لأجلها.

"أنا على ما يرام، آسفة على ما تسببت في حدوثه"

أردفت وهي تنظر للأرض بعينين شاعرتان بالذنب.

"ما الذي تسببت في حدوثه؟"

تساءل المعلم حائرا، اهتز صوتها بعض الشيء وأجابت بكلمات متقطعة:

"كدت.. أتسبب.. بمقتلك، إنه خطئي، أنا حقا.. آسفة"

"ليليس لقد أنقذتِنا"

نظرت له بغير فهم! أنقذتهم؟! هذا غير صحيح! غير متوقع!

"لقد قطعت الحبل الذي ربط الفرس بالعربة، لولا ذلك ربما لكنا أمواتًا بالفعل!"

شعرت بالحيرة، كلا إنه خطؤها، فلو كانت أسرع لكانت قدم المعلم سليمة ولم يطعنها ذلك الشخص!

"لكنك طُعنت، جدر بي أن أكون أسرع!"

"لقد كنت مصابة بالدوار، وكنت تهزين وعلى الرغم من ذلك انقذتنا، وأنا أفضل أن تُطعن قدمي على أن أكون ميتا"

كلا، كلا، هذا خاطئ!

"لم يُفترض أن أهذي، تلك كانت حماقة مني، أنا.."

حتى ذلك الحد قاطعها المعلم تماما:

"آسفة، أليس كذلك؟! لماذا أشعر أنك مصرة على جعل ذلك يبدو على أنه خطؤك؟! على الرغم من أنك لم تتسببي في أي شيء خاطئ! إلا إذا كنتِ

ترين أن إنقاذنا شيء خاطئ؟!"

لم تدر بما تجيب، لكن، أليست هي المخطئة؟! إن المنطق الذي يفكر به المعلم غريب حقا ويشعرها بالحيرة، ظلت تسير وهي تنظر للأرض بعيون واسعة حتى شعرت بالمعلم يوقفها بهدوء:

"ليليس، فلتنظري إليَّ"

رفعت عينيها لتقابل عينيه وهي شاعرة ببعض الرهبة، فهي ليست سعيدة للغاية بتلك المناقشة، سعيدة فحسب بعودة النقاش بينهما، لكن غير ذلك فهي تشعر أن هذا الحوار يربكها، شعرت ببعض العزم في عيني المعلم وهو يسألها:

"لماذا لم تخبريني بما حدث على متن السفينة؟"

صُعقت لذاك السؤال ولتلك الذكرى على وجه العموم، ذلك الفتى وما كاد يفعله، أبعدت عينيها عن عيني المعلم وشعرت ببعض الدموع تتجمع بمقلتيها.

"أتحسبين أن ذلك كان خطؤك أيضا؟ أذلك ما أخبرك به من حاولوا من قبل القيام بما حاول ذلك الفتى القيام به؟!"

نظرت للمعلم بعينين واسعتين شاعرة بالدموع تسقط بالفعل منهما، شعرت بأنفاسها تضيق وبأطرافها ترتجف، ومر بذاكرتها شريط ذكريات طالما حاولت تناسيه، ارحلوا، أرجوكم فلترحلوا فحسب، شعرت بصوتها ينوح بعقلها لتلك الذكريات، صار الآن صوتها يرتجف من فمها وشعرت بأنها على حافة الانهيار، الانهيار والبكاء حتى أخمص قدميها، تماسكي، تماسكي، وإلا سيتم

عقابك، أرادت أن تجيب المعلم، أرادت أن ترجوه أن يتوقف فحسب، تريدهم أن يتركوها لحالها، لكن حديثه هذا يعيدهم فحسب، لا تكمل، أرجوك.

"ليليس، ما حدث لك هذا!"

يا للهول، إنه سيكمل! نظرت ليليس للأرض مغمضة عينيها شاعرة بدموعها وبجدارها يتحطم تماما، وبأنها تفقد الشعرة الأخيرة لتماسكها.

"لن يتكرر مجددا، أنا أعدك!"

ماذا؟! نظرت له من بين دموعها بغير فهم ما يعنى، ألن يهينها؟! ألن يضربها؟! ألن يكمل سرد ما حدث لها؟! تعلم أنه رجل صالح، لكن الصالحين أيضا يفعلون ذلك، فالسيدة (سوزي) كانت امرأة صالحة، لكن عندما أخبرتها ليليس بما حاول أحد المشر"فين" في دار الأيتام أن يفعله لها، على الرغم من كون السيدة سوزي عطوفة معها، إلا أن رد فعلها كان صادما؛ فقد لطمت ليليس بقوة عدة مرات مخبرة إياها أن ذلك المشرف رجل صالح، وأنها حسبت أن ليليس فتاة صالحة أيضا، لكنها فتاة قذرة تريد تدمير زواج ذلك المشرف لتتزوجه هي وتترك دار الأيتام، صُعقت ليليس مما فعلته السيدة سوزي حينها، حتى اعتادت على ردود الأفعال تلك، حتى صارت تصدقهم وتتفوه بحديثهم لنفسها إن حدث أي شيء، فبالفعل هي المخطئة، تلك هي الحقيقة فحسب، ما صعقها الآن هو رد فعل المعلم، اهتز صوتها وهي تسأل بدهشة:

"ألن تعاقبني؟!"

دُهش المعلم وأجابها سريعا باستنكار:

"بالطبع لا، ليليس، هم من يستحقون العقاب وليس أنت!"

كيف يمكن لأي شخص أن يكون بذاك العطف؟! لابد أنه ملاك وليس بشريًّا كي يعفيها من أخطائها، بل ويحاول التخفيف عنها وحمايتها كذلك! ربما هو محق في تصديق أنه من نسل الحالمين وأنه يستطيع إعادة قواهم، فكل ما قرأته يؤكد أنهم أكثر الأشخاص عطفا على الإطلاق، عطفهم لا يخالطه أي خصال سيئة، هم الصفوة المختارين كما ذكرتهم بعض الكتب.

"ليليس، لقد انتظرتك أنت أن تخبريني بنفسك، لكنك لم تفعلي لذا يجدر بي سؤالك، كيف انتهى بك المطاف في دار الأيتام تلك؟ كل ما سمعته منهم أن شخصًا ما تركك أمام ذاك المكان حين كنت بعمر السادسة، ولم يجدوا والديك مطلقا، وأنت حينها ظللت عامًا كاملًا لا تنطقين أو تأكلين أو أي شيء، فقط تتأملين الحائط حتى خرجت من تلك الحالة يومًا ما في أثناء نظرك من النافذة ولمحك شيئا ما"

حاولت التذكر إلا أن الأمر كان صعبًا، فهي بالفعل لا تتذكر سوى لمحات قبل أن تكتشف أنها صارت بذلك الملجأ، لمحات من ذلك اليوم حين زارتهم سيدة ذات صلة قرابة بوالدتها، برفقة طفلها الرضيع، لا تذكر ملامحهم حتى، لا تذكر سوى أن الطفل كان صغيرًا للغاية، فيبدو أنه وُلد قبل زيارة السيدة تلك بفترة قصيرة، سارت الأمور على ما يرام حتى دق الباب، وذهبت تلك السيدة لتفتحه، بينما ظلت ليليس ووالدتها بالغرفة، ثم سمعتا صراخًا، فقامت والدتها بإخفائها أسفل الفراش سريعا، لكن الخشب كان غير سليم للغاية، تذكر ذلك

جيدا، فقد استطاعت رؤية والدتها عَبْره، وآخر ما أخبرتها به والدتها هو 'مهما حدث، مهما رأيتِ لا تفتحي فمك، لا تتحركي، ابقي مختبئة فحسب' ثم لا شيء، لا شيء حتى رأت تلك الشابة من نافذة الملجأ، لم تستطع رؤيتها جيدا، لكن حينما لمحتها للمرة الأولى، حسبت ليليس أنها والدتها، لكن الشابة اختفت ولم ترها ليليس مجددا، أما باقي الذكريات مفقودة كما لو أن بموضعها فجوة ما، حتى إن ما تذكره لم يكن كله موجودا دوما، فقد استرجعته تدريجيا بمرور الزمن.

"لا أذكر حقا أيها المعلم، لا أذكر سوى وجه والدتي المرتعب."

أجابت بحزن، لم يعقب المعلم ولم تدرك أهو ينظر لها أم لا، فقد ظلت تنظر أرضا، وهي تتساءل بألم عما قد أصاب والدتها.

"أتعتقد أيها العالم أنها رحلت وتركتني أم أن شيئا آخر قد حدث؟"

همست شاعرة بثقل السؤال.

"لست خبيرًا بتصرفات البشر، لكني واثق أن ليس هناك أمٌّ سليمة العقل قد تفعل ذلك وخاصة إن كنت أنتِ ابنتها.."

نظرت له بغير فهم فنظر لها بدوره متسائلا:

"تذكرين حينما اقتربت السفينة من المرسى، وسألتك لماذا تعتقدين أني اخترتك لتصيري مساعدتي؟!"

تتذكر ذاك اليوم، قد كانت الشمس ساطعة واجتمع المسافرون على سطح السفينة منتظرين الوصول للبر، تتذكر كذلك ذلك الفتى الثعبان واقترابه منها

وعيناه تملؤهما الشر، لولا مجيء المعلم، لا تدري ما كان سيحدث، حاولت عدم التفكير في ذلك والتركيز على إجابة السؤال، أومأت ببطء.

"أخبرتني حينها أنكِ تدرين الإجابة،"

أجل إنها تدري الإجابة لأنها في الأصل من هذه الأرض، وتستطيع الكتابة والقراءة.

"ما الإجابة إذن يا ليليس؟"

"لأني في الأصل من هنا وأقرأ كثيرا وأستطيع الكتابة"

نظرت له منتظرة تأكيد إجابتها، لكنها شعرت بالحيرة حين وجدته يضحك مستنكرا:

"هل تفوهت بشيء خاطئ؟!"

"ليليس أنت تدرين أن شبه الجزيرة شهيرة بالعلم والعلماء، وفي الغالب كلهم يتم تعليمه فيها القراءة والكتابة، ربما فقط أقصى أطرافها الشرقية هي من يسود بها بعض الفقر والجهل، وذلك بسبب غارات جزر راندوس المتكررة وتركيز حكام شبه جزيرة لونا على تجنيد من يعيش بتلك المناطق، وجعلهم جنودًا بحريين لصد تلك الغارات، كذلك فأغلب الأموال تستخدم في المنطقة الشرقية في الحماية من تلك الغارات، ليس كأغلب أنحاء شبه الجزيرة حيث الاهتمام الأول يكون بالتعليم."

هذا حقيقي؛ فالغارات تتكرر دوما، ولولا أن أغلب السكان هناك جنود بحريين بالفعل بالإضافة للجنود الذي يبعثهم الإمبراطور والحمايات المتعددة، لحل الدمار تماما في المنطقة الشرقية.

"لقد نشأت في مدينة العلم والعلماء يا ليليس، رأيت كمَّ العجائب التي تحتويها وكبرت محبا للعلم أكثر من أي شيء آخر، لم أكن من أبناء الصفوة، لكني كنت مساعد عالم مدهش لديه من العلم ما يكفي لتثقيف بلاد بأكملها، عرفت من دراستي معه عن الحضارات القديمة وأحببتها بشدة وخاصة حضارة الحالمين، تمنيت دوما أن أستطيع اكتشافها بصورة أفضل حيث توجد، وأن أصير عالمًا بحق، لكن الأمر لم يكن سهلًا، فعلى الرغم من اهتمام شبه الجزيرة بالعلم، فمازال أبناء الصفوة يحصلون على المناصب أسرع، لا يحصلون عليها إلا لو استحقوها، لكنهم إن استحقوها بالفعل يحصلون عليها أسرع من العاديين، عملي مع العالم أفادني كثيرا، وبعد موته بقليل من الوقت استطعت الحصول على لقب عالم والوصول لبداية طريقي، ربما كان متأخرا بعض الشيء لكنني وصلت أخيرا، تبقى لي فقط الحصول على مساعدٍ لنفسي، كان بوسعي اختيار أي شخص، كثيرٌ حتى من أبناء الصفوة جلبوا أبناءهم لجعلهم مساعدين لي، لكني لست أنا العالم الذي يجلس على مقعده ويستقي معرفته فحسب من كتب لعلماء آخرين، أو أنا الشخص الذي يكتب كتبًا جديدة معتمد فيها على ما وجده شخص آخر، لذا لم أرد أي مساعد فحسب، أي مساعد يعتقد أنه سيحضر لي بعض الكتب ثم يذهب ليستلقي في منزل والده الفاخر.."

تنهد المعلم ثم أكمل:

"علمت أن إيجاد مساعد ستكون المهمة الأصعب، عشت عمرًا طويلًا أجمع كل ما تعلمته في حياتي وعلمت أن من سيحمل ذلك العلم والمعرفة من بعدي يستحق أن أبحث عنه جيدا حتى إن تطلب ذلك بعض الوقت، فذلك أفضل من أن أسلم علمي لشخص سيضيع كل ما جمعته في عمرى بأكمله لأجل حياة أسهل أو أموال أو شهرة، لذا جُبت شبه الجزيرة كلها بحثا عن شخص مناسب لتلك المهمة، حتى قادتني قدماي في النهاية للمنطقة الشرقية، ولدور الأيتام بها، علمت أن الجهل والمعاملة السيئة تسودان هناك، حين سألتك لماذا تعتقدين أني اخترتك أنت، أخبرتك بعدها أن تلك الأرض التي نطؤها تعرضت لكمٍّ حروب ودمار لا يُحصى، لكن على الرغم من ذلك مازالت صامدة."

نعم، تتذكر ذلك، لكن ما علاقة ذلك بما يخبرها به الآن؟

"وهذا ما وجدته في فتاة تعرضت لصفعات الحياة منذ صغرها، لكنها لم تستسلم ووجدت ملاذها في المعرفة والعلم"

عمن يتحدث؟! أيتحدث عنها هي؟! شعرت بعينيها تتلألأ بالدموع مجددا، لم تدرِ أتلك المرة لتذكرها ما أصابها في الماضي، أم لأنها لأول مرة في حياتها تشعر أن تحملها ما أصابها قد يكون ذا مغزى وأن شخصًا ما يرى أن ذلك يجعلها مميزة دونا عن أشخاص أفضل منها بمئات المرات.

"وحينما صارت تلك الفتاة مساعدتي، اكتشفت أنني إن صار لي عائلة في يوم ما لتمنيت أن تكون لي ابنة مثلها، ذكية وعطوفة وجميلة وقوية"

أردف المعلم ناظرا لها بعطف، لم تصدق ما تسمعه، هو يتمنى أن تكون له ابنة مثلها؟! هو يظن أنها ذكية وعطوفة وجميلة وقوية؟! نظرت بينما الدموع مازالت بعينيها وشعرت بصوتها يخرج مهتزا أشبه بالهمسة:

"حقا؟!"

"حقا"

أجابها وهو يربت على كتفها بلطف، ثم أكمل:

"والآن أريدك أن تحاولي نسيان كل ما تعرضت له سابقا، فلن يتكرر أبدا سأحرص على ذلك، عندما ننهي هذه الرحلة سيتغير كل شيء للأفضل، لن تعودي لدار الأيتام تلك، وستبدئين حياة جديدة سعيدة، أعدك بذلك"

فتحت فمها وعينيها بشدة غير مصدقة:

"أت.. أتعني..؟!"

"أعني أنك ستصرين مساعدتي الدائمة، وليس لفترة من الزمن فحسب، ولن تعودي لذلك المكان مرة أخرى"

شعرت أنها تحلم، أرادت عناق المعلم بشدة، أرادت الصياح بأعلى ما لديها وإخبار العالم كله أنها لن تعود لذاك المكان مرة أخرى! أجل لن تعود! ستصير حرة! ستصير سعيدة! وستصير مساعدة العالم الدائمة! ولن تعود لذلك المكان أبدا! أخذت تكرر تلك الجملة في رأسها مرارا لتصدقها، كانت الابتسامة على وجهها أكبر ما تكون، وظلت الدموع كما هي لكنها دموع السعادة، ابتسم العالم لها وأخرج شيئا من حقيبته ثم وضعه في قبضة يدها، نظرت للشيء ذو الملمس

المعدني لتجده القلادة ذو الزمردة الخضراء التي ابتاعتها من ذلك الفتى الذي خدعها في (ليس الكبرى)، كانت بالية بالفعل، لكن ظلت الزمردة بلونها الأخضر، ظنت أن المعلم تخلص منها أو أنها ضاعت حين هربا لكن يبدو أنها كانت بحوزته كل ذلك الوقت، نظرت ليليس له بتساؤل ليجيبها:

"حينما أخبرتني بما حدث ذلك اليوم كنت سأشتاط غضبا، لكني حين رأيت لون الزمردة وشكلها ذكرتني بالرسومات التخطيطية التي رأيتها لمقر الحالمين وما قرأته عنهم، كانت تغطي الجواهر الخضراء مقرهم، فاللون الأخضر يدل على الخير والحياة الجديدة المشرقة، وقد آمنوا بأن ذلك هو مغزى وجودهم في الكون، ضمان الحياة الخيرة للآخرين، على الرغم من كوني عالما إلا أنني أؤمن بالإشارات، وحينما رأيت تلك القلادة شعرت أنها تدل على شيء ما بخصوص الحالمين لذا تمسكت بها.."

ضحك المعلم ثم أكمل:

"لكن جزء العالم تمكن مني ليخبرني أن ذلك هراء، لكني وددت أن تظل القلادة ذات مغزى، لذا أريدك أن تبقيها، كإشارة على أنك ستحصلين على السعادة، ستتركين حياتك السابقة وتحصلين على حياة أخرى"

*****

لم يستغرقهم الأمر سوى بضعة ساعات أخرى من السير حتى وصلوا أخيرا لوجهتهم (لوستيا)، أقرب قرية لمقر الحالمين، وقد تعتبر أيضا الأقرب للحدود مع النصف الجنوبي من القارة، صغيرة هي، لا تبدو كباقي الأجزاء التي رأتها من قبل في تلك القارة، فكل ما رأته هو الأشجار والزهور والجمال في جميع الأنحاء، ويعود الفضل الأكبر في ذلك لآبار الحياة المنتشرة في كل أرجاء القارة خاصة في (ليس الكبرى)، لكن منذ الدرب القاحل ويبدو أن أيَّة حياة رحلت، أو بالكاد ظلت موجودة كما في تلك القرية، على الرغم من ذلك يحيط الجنود بكل أرجاء تلك القرية كما لو أنهم يحاولون حماية كنز ما؛ ذلك بالطبع لوجودها بأقصى الجنوب على مقربة من الجزء الجنوبي للقارة، فقد قرأت عن العداوة القائمة بين الشعبين الأحمر والأصفر وبين ممالك السحرة الواقعة بالجزء الجنوبي من القارة، لتقديس تلك الممالك للسحر كما يظهر من اسمها، قرأت قليلًا أيضا عن تلك الممالك، وكم يعتبرون السحرة هم حكام الأرض الفعليون، بينما باقي البشر ليسوا سوى خدم لهم، نظامهم يعتمد على الطبقية، كما أن العبودية شيء طبيعي للغاية في تلك الأرجاء، لا يعتبرون النساء سوى خادمات أو عاهرات، ويهتمون للغاية بتجنيد الأطفال منذ صغرهم وتعريضهم لأسوء الظروف؛ حتى يستطيعوا الدفاع عن السحرة وحمايتهم حين يكبرون، ظنت ليليس أن ثقافتهم مريبة بعض الشيء مقارنة بثقافات أخرى كشبه جزيرة لونا على سبيل المثال، يوجد بقرية لوستيا عديدٌ من الأماكن لقضاء الليلة، لكن المعلم بدا غير شغوف بذلك لسبب ما لم تفهمه ربما هو عدم توافر كثيرٍ من المال المتبقي لديهم، لكن في النهاية لم يكن

أمامهم خيار سوى قضاء الليلة في أحد الأماكن المخصصة لذلك نظرا لإجهادهم ولتأخر الوقت، اختار المعلم لذلك مكانًا يوجد بأقصى القرية لكى يصبحا أقرب ما يكون لأنقاض مقر الحالمين، ليستكملا رحلتهما صباحا حيث بدا أن المعلم صار منعدم الصبر ليصل لوجهته، خاصة بعد كل ما مروا به بتلك الرحلة الغريبة، في أثناء ذهابهما لغرفهما قاطعت طريقهما سيدة ما.

"أهلا بكما"

"أهلا"

أجابها المعلم بابتسامة مجاملة.

"عيون خضراء؟! لا يبدو أنكما من الأرجاء.."

أردفت السيدة وهي تنظر لليليس ثم أكملت:

"هل أنتما من شبه جزيرة لونا؟"

أومأ المعلم.

"يسرني حقا مقابلتكما، أنا أدعى روزالين وأنا مالكة هذا المكان، أتمنى لكما إقامة سعيدة"

بدت لطيفة بعض الشيء.

"نشكرك حقا"

أردف المعلم باقتضاب.

"هل لي أن أتعرف إليكما؟!"

"أدعى ران، أنا عالم في الحضارات القديمة من شبه جزيرة لونا، وتلك هي مساعدتي ليليس"

قال المعلم مشيرا لنفسه ثم لليليس.

"امم عالم في الحضارات القديمة هذا رائع، وتلك هي مساعدتك؟ مرحبا ليليس، أنتِ بديعة الجمال حقا! أتعلمين ذلك؟!"

ابتسمت ليليس بخجل بعض الشيء وهمست:

"أشكرك، سيدتي"

"لكنك تبدين هزيلة وباهتة، ألا تأكلين جيدا يا حلوتي؟"

لم تدرِ بما تجيب، لطالما بدت بهذا الشكل فحسب، رد المعلم عوضا عنها وبدا عليه الاستياء:

"أخشى أنه تمت سرقتنا"

"أهذا صحيح؟! أتحتاجون لأيَّة مساعدة؟ أتحتاجين لأيَّة مساعدة يا حلوتي؟"

"كلا، نشكرك، والآن اعذرينا فكلانا مجهد للغاية"

أردف المعلم سريعا دون ترك فرصة لليليس بالإجابة، ثم سار مبتعدا برفقتها، لم تمر سوى بضعة ثوان حتى وصلا لغرفهما، وحدث أمر غريب حينها، فقد أوصلها المعلم لباب غرفتها، وهو شيء لم تعتده من قبل، حيث يذهب دوما مباشرة لغرفته في أي مكان ذهبا إليه.

"ليليس، لن نمكث في هذا المكان سوى الليلة فحسب، أريدك أن توصدي بابك ولا تفتحي لأي شخص! كما أريدك ألا تتحدثي مع السيدة روزالين تلك إذا صادف ورأيتها مجددا قبل رحيلنا!"

بدا المعلم حازما بنبرته، لم تفهم ما يحدث لكن بلا شك أصابها القلق، أومأت سريعا دون أن تفهم حقا ما يدور.

"الآن اذهبي، سأراكِ غدا في الصباح الباكر، سأنتظرك أمام غرفتك"

"لكن أنا من ينتظرك أمام غرفتك دوما أيها المعلم، أتخشى أني سأتأخر في الحضور؟!"

"كلا، فقط، لا تخرجي حتى تجديني أمام غرفتك، مفهوم؟"

"مفهوم"

"ليلة سعيدة"

"ليلة سعيدة"

لم يتحرك المعلم من مكانه، بل أشار لها بعينه أن تدخل لغرفتها، ولم تسمع خطوات قدمه تسير مبتعدة حتى دخلت وأغلقت الباب من خلفها، ما الذي يحدث؟! تثق به لكن تصرفه ذلك يصيبها بالقلق حقا، لا يهم الآن ستفعل كل ما أمرها به فحسب.

كانت الغرفة صغيرة الحجم كالمعتاد، ليس بها سوى فراش ضئيل بجواره طاولة صغيرة أعلاها شمعة مضاءة وأيضا كرسي متوسط الحجم، جرَّت ليليس الكرسي جهة الباب ووضعته أمامه بإحكام، فلم يخطر ببالها طريقة أخرى لغلق

الباب، ثم اتجهت للفراش وتمددت أعلاه، كان شبه مهشم وتأكدت ذلك حين سمعت صوت خشب ما ينكسر حين تمددت أعلى الفراش، بوزنها هذا! على الأقل فهذه الغرفة أفضل من غرفة السفينة، تركت نور الشمعة مضاءً فهي تخاف الظلام، أخذت تفكر وهي تنظر لأعلى عن شكل حياتها بعد انتهاء كل ذلك، جالت بخيالها لمدينة العلم والعلماء بشبه جزيرة لونا، تلك المدينة التي لا تخفت أنوارها أبدا، ذات البلاط المرصوف في جميع أجزائها، والأبراج الطويلة التي تصل حد السماء، تشبه رائحتها رائحة الأوراق القديمة والتوت البري، إنها رائعة، ستمكث بها كثيرا؛ فهي ستكون مساعدة المعلم الدائمة! ربما قد يسمح لها بالبحث عن والدتها؟! تساءلت بدهشة وسعادة، سرعان ما تلاشى ذلك لتفكيرها بأن ربما ذلك لن يحدث أبدا، لكن المعلم مختلف، ربما إن عملت بجد فقد يوافق؟ ابتسمت للخاطرة واحتضنت نفسها مغلقة عينيها وللمرة الأولى منذ فترة طويلة لم تشعر بالخوف، فهي تعلم أن المعلم سيحميها، تسلل النعاس لعينيها ونامت سريعا. لم تدرِ كم من الوقت غفوت حتى استيقظت مفزوعة بعض الشيء، لكنها لم تدرِ السبب، سمعت أصواتًا غريبةً صادرة من الجدران، لم تستطع تحديد ماهيتها، لكنها بدت أشبه بالطرق أو كما لو أن شيئا ما يرتطم بقوة بالجدار، دارت بعينيها محاولة تحديد مصدر الصوت لكنها لم تستطع، تلك الجدران هشة بلا شك، فجأة رأت مقبض الباب يهتز ببطء في محاولة لفتح الباب، صُعقت موسعة عينيها على مصراعيهما شاعرة بالهلع يجتاحها، لم تتحرك من مكانها فقط ظلت عيناها منتصبتان على الباب، وشعرت بأنفاسها تزداد سرعة ورعشة، لم

تمضِ ثوانٍ حتى ثبت مقبض الباب ولم يعد يهتز، لمْ تحرك عينيها من على الباب حتى مر ما يقرب من الخمس دقائق، نظرت جهة الشمعة فوجدتها مضاءة، لكن لم يتبقَّ لها كثيرٌ من الوقت حتى تنطفئ تماما، ضمت ركبتيها لصدرها محتضنة إياهما بقوة، ثم دفنت رأسها بينهما بأنفاس مرتعشة، لعله لم يكن ما حسبته، لعله كان هذيان، لكنها تدري أنه لم يكن كذلك وأنه كان حقيقيًّا، لكن ربما تلك المرة، تلك المرة فحسب كان مجرد أوهام، فهي على وشك رمي كل تلك الذكريات خلفها وبدء حياة جديدة، حياة جيدة، حياة لن يتكرر بها أي شيء سيء عهدته من قبل، لقد وعدها المعلم وهو لم ينكث وعده لها من قبل، شعرت بدموعها تتجمع بمقلتيها، أرجوك يا ليليس تلك المرة فحسب، فلتصدقي أنها كانت أوهام.

*****

اتسعت عينيها قلقا حين سمعت صوت الطرقات الخفيفة تلك على الباب، مازالت بهيئتها السابقة من احتضانها لركبتيها منذ ما حدث من ساعات، فلم تستطع النوم بعد ذلك مطلقا، تشعر بأن جسدها محطم تماما، وبرأسها يؤلمها بسبب السهر طوال الليلة الماضية، على الرغم من خمود الشمعة منذ فترة إلا أن الضوء كان موجودا بالغرفة من أثر الثقوب والشروخ في جدران وسطح الغرفة، اقتربت من الباب بترقب وهي فزعة من هوية الطارق، سمعت الطرقات مجددا وصوت المعلم يناديها، تنهدت باطمئنان ثم فتحت الباب سريعا لتجده يقف أمامها مبتسما، لكن ملامحه تغيرت سريعا إثر رؤيته لمظهرها:

"تكونين متيقظة وجاهزة في هذا الوقت يوميا! ما بالك اليوم؟"

"أنا على ما يرام"

أجابته سريعا بصوت مرهق:

"شعرك غير مصفف، اللون الأسود يحيط بعينيك، صوتك متعب، أهذا يدعى 'على ما يرام'؟"

وجهت عينيها أرضا مبعدة إياهما عنه.

"هل حدث شيء البارحة؟"

فكرت سريعا ثم أردفت:

"كلا، لم يحدث شيئا"

"إذن لماذا تبدين بهذا المظهر كما لو أنك سهرت طوال الليل؟"

"لأني، راودتني بعض الكوابيس، لم أستطع النوم بسببها، أعتذر.. على استيقاظي متأخرا"

تنهد المعلم قائلا:

"لا بأس، فلتجهزي سريعا، سأنتظرك خارجا"

ثم سار مبتعدا، سارت ليليس لداخل الغرفة مغلقة الباب من خلفها ثم أخذت ترتب ملابسها وتصفف شعرها سريعا، إنها لم تكذب، كانت تلك الحقيقة! فما حدث الليلة الماضية، لم يكن سوى بعض الهذيان فحسب! أخذت تكرر ذلك الكلام برأسها مؤكدة إياه لنفسها. لم تمر سوى بضعة دقائق حتى خرجت من الغرفة متجهة لأسفل حيث يوجد المخرج، ثم سارت مباشرة نحوه

حيث ينتظرها المعلم، لكن شخصًا ما أوقفها مناديا باسمها، نظرت جهة الصوت لتجدها السيدة روزالين تتجه نحوها ثم تقف أمامها محيية إياها:

"ما أخبارك يا حلوتي؟"

لم تدر ليليس ماذا تفعل تشعر أنها سيدة لطيفة لكن المعلم حذرها ألا تتحدث معها مجددا، لكنها لم ترد أن تكون فظة:

"على ما يرام، أشكرك"

"إلى أين تذهبين في هذا الوقت المبكر؟"

تساءلت السيدة فابتسمت ليليس مجاملة:

"راحلة"

بدا الاندهاش على وجه السيدة:

"راحلة؟! ألم يعجبك المكان؟!"

شعرت ليليس بعدم الراحة تريد الذهاب فحسب كي لا يغضب المعلم منها لمخالفتها أوامره.

"أأأ.. المكان جميل للغاية، إنها أوامر المعلم فحسب، أن نرحل الآن"

"لماذا تطيعينه يا حلوتي؟!"

ما هذا السؤال؟! لم تدرِ حتى بمَ تجيب، بدا سؤالا غريبا للغاية، تغيرت نبرة السيدة قليلا مكملة:

"أتدرين إن كان الأمر بشأن المال، فيمكنني أن أعرض عليك العمل لدي وأيا كان ما يدفعه لك سأزيده"

اندهشت ليليس، كلا إنه ليس بشأن المال! عمَّ تتحدث؟! إنها تدين للمعلم بكل شيء جيد في حياتها، إنه السبب في أيَّة سعادة عاشتها من بعد والدتها! إنها تحبه وتحترمه للغاية وتزداد كل يوم علما بسببه! أحيانا تشعر أنه لا توجد كلمات كافية لتعبر بها عن مدى امتنانها له، خاصة بعد آخر حديث دار بينهما قبل الوصول لهذه القرية، ثم عن أي عمل تتحدث تلك السيدة؟! قبل أن تجيب، اخترق أذنها صوت المعلم يناديها من الخارج وهو ينظر جهتها، لذلك عوضا عن إجابة السؤال حاولت إنهاء المناقشة تماما:

"أأأ.. أعتذر يجدر بي الرحيل"

"كما تشائين يا حلوتي، لكن فكري بعرضي إذا أردتِ"

أومأت ثم خرجت سريعا قبل أن تسألها السيدة شيئا آخر ووصلت للمعلم الذي نظر لها بعتاب، ثم هز رأسه باستنكار مشيرا لها بالمضي برفقته.

"ماذا أرادت؟"

سألها باقتضاب.

"لا شيء، كانت تتمنى، أن المكان قد أعجبنا فحسب"

ردت سريعا متجنبة النظر له.

"هذا فحسب؟!"

تساءل بنبرة غير مصدقة فأومأت ليليس سريعا بتوتر:

"حسنا، ربما جدر بي أن أكون أكثر وضوحا من قبل"

انتبهت له غير مدركة عما يتحدث، أكمل المعلم:

"ليليس لم أرد المرور من قبل بهذه القرية لأنها.. لنقل يتم بها عديدٌ من المعاملات البذيئة، لذلك أيا كان ما أخبرتك به تلك المرأة، فلا تثقي بكلامها! فأنا واثق أن نواياها تجاهك غير حسنة، خاصة لاختلاف مظهرك عن باقي سكان هذه الأرجاء، فالناس يملون المعتاد ويريدون ما هو مختلف"

ماذا؟! ما الذي يعنيه بكل ذلك؟! هل كانت تنوي تلك السيدة أن تؤذيها بصورة ما؟!

"لكن لا تقلقي، فغالبا لن نمر من هنا في أثناء عودتنا، أردتك أن تعرفي فحسب، يجدر بك أن تكوني أكثر حرصا في أثناء تعاملك مع الناس!"

أومأت بتفهم شاعرة بسذاجتها، سرحت بخيالها كعادتها لتنسى الدرب والموجودات من حولها وكل شيء، ويصير جسدها ممتطيا الخيل خلف المعلم وهم راحلين لوجهتهم قاطعين سبل القرية، فسبل تلك الأراضي التي كانت غابة يوما تحيط بمقر الحالمين، لكنها الآن ليست سوى مسطحات بالكاد خضراء، تتخللها بعض الأشجار، لكن أفكارها كانت تهيم بمكان آخر أو يجدر القول بأماكن أخرى، ما الذي أرادته منها تلك السيدة روزالين؟ ماذا سيجدون في أنقاض مقر الحالمين؟ كيف ستصير حياتها بعد كل ذلك؟ تخيلات لامتناهية تمر أمام عينيها مع نظرها للسماء والأشجار وتلك الزهرة الصفراء، خُيل لها أنها رأت زهرة بذلك اللون، لكن أليست الأزهار الصفراء لا يتم زراعتها في المملكة الغربية؟!

"أخيرا!"

هتف المعلم بلهفة، فنظرت أمامها لتجد تلك الأنقاض على مرمى البصر، حث المعلم الخيل على الركض بأقصى ما لديه حتى انتاب ليليس بعض القلق من سرعتهم غير الضرورية تلك، فقد بدا أن المعلم قد نفد صبره تماما، لم تمر سوى بضع دقائق حتى وصلوا أمام تلك الأنقاض التي لم تستطع تمييز معالمها قبل وصولهم نظرا لتركيزها على التشبث بالمعلم وعدم السقوط من أعلى الخيل، ترجل المعلم من أعلى الفرس سريعا وتبعته هي متأملة ما كان مقر الحالمين يوما ما، مهولة، شاسعة، لكنها في النهاية أنقاض، هذا ما خطر ببالها وهي تنظر لما بدا أنه كان في يوم أشبه بعدة قصور واسعة مجتمعة سوية في غابة منعزلة عن العالم، لكنه الآن ذكرى لما كان فحسب، كانت هناك بعض الزخارف والنقوش على المبنى من الخارج، لكنها لم تحدد أيًّا منها، عبرا أسوار تلك القصور ليسيرا بتلك الحدائق الشاسعة المحيطة بأنقاض مقر الحالمين، رأت بها بعض التماثيل الصغيرة المهشمة التي لم يعد يبدو أثرًا لها، على الرغم من دمار هذا المكان إلا أن الطبيعة بداخل تلك الحدائق بدت جميلة حقا، ليست باهرة الجمال كأراضي (ليس الكبرى) على سبيل المثال، لكنها تدب ببعض الحياة عكس الدرب القاحل والأراضي التي تليه، حتى إنها رأت بعض السناجب تجري بالأرجاء، إن هذا موقع مدهش لقصر ملكي أو معقل أو ربما حتى قلعة حربية إذا تم عمل بعض التعديلات له، لكن الشعبين تخلَّوا عن هذا المكان تماما وتركوه مهجورا بسبب ذعرهم الجم من السحر، أكملت السير خلف المعلم الذي بدا أكثر تلهفا مع كل دقيقة لاكتشاف هذا المكان، رأت ما يبدو بالجوهرة الكبيرة الخضراء في مدخل المبنى الذي هو

عبارة عن باب ضخم حقا، حسبت أن شعورها حينما ترى تلك الأنقاض للمرة الأولى سيكون الرهبة والانبهار، لكن الواقع هو أنها لم تشعر سوى بالحزن يجتاح أوصالها، لا تدري لمَ تشعر دوما بالحزن حينما تقرأ أو ترى أي شيء كان يخص إخوة الظل، مسبقا تشعر أن قصتهم مأساوية للغاية، والآن هذا هو حال من سُموا بالصفوة منهم، هذا هو مصير الحالمين، البلاء والنسيان، بل ورؤيتهم على أنهم لعنة ما على الرغم من كل ما كُتب عنهم وعما فعلوه لأجل تلك الأرض، بل إنهم حتى لم يشاركوا في الحرب بين إخوة الظل والشعبين الأحمر والأصفر، كي لا يتسببوا في مقتل أي روح، تنهدت ليليس وتبعت المعلم في أثناء دخوله من ذلك الباب الصخري الضخم الذي بدا مشابها للبوابة، لحسن الحظ إنه كان شبه مفتوح بالفعل، فلا تدري إن لم تكن تلك هي الحال كيف كانوا ليفتحوه؟! كان المكان واسعا بالداخل بحق، امتلأ بالرماد، البرك الصغيرة الراكدة والأحجار التي تشبه الجواهر الخضراء مثبتة داخل الجدران لتعطي إضاءة خضراء في المكان كله كما لو أنها أشعة خضراء تنبعث من كل حجر من تلك الأحجار.

"أتلك هي الجواهر الخضراء التي حدثتني عنها أيها المعلم؟"

توجهت للمعلم متسائلة، لكنه لم ينتبه لها، بل أكمل سيره ليستكشف باقي المكان، سارت خلفه لكنها لمحت شيئا ما، شعرت بالذعر ينتابها، لكنها اقتربت لتتأكد من شكوكها، شهقت عند اقترابها للغاية مبعدة نظرها لتجد مزيدًا مما أفزعها من قبل موجودا في جميع الأرجاء، أصابت الرعشة أوصالها وركضت حيث اتجه المعلم سابقا تناديه بهلع:

"أيها المعلم! أيها المعلم! لقد وجدت.."

توقفت عند مدخل قاعة واسعة حين وجدته جاثيا على ركبتيه في بهو تلك القاعة ممسكا بعظام شخص ميت بحزن.. كانت القاعة أشبه بالمكتبة، لكنها مخربة تماما، لم يتبقَّ منها سوى بقايا كتب محروقة أو ممزقة، دُفنت تحت طبقات من تراب السنين، وعلى مثيل ما ركضت بسببه ليليس من قبل احتوت القاعة على عدد من عظام الموتى مجهولي الهوية.

"لقد تم قتلهم.."

أردف المعلم بصوت هامس، أمسك المعلم أحد الكتب الممزقة ثم وقف وهز رأسه باستنكار:

"أهذا هو حال حضارة كانت منبع الخير لمئات السنين؟!"

تساءل غير مصدق، همت بالرد لكنها صمتت سريعا، فلم ترد أن تتفوه بأي حديث غير متعاطف حتى دون عمد؛ فقد بدا المعلم منفطر الفؤاد، لكن حتى إن قُتلوا، فكيف لعظامهم أن تظل موجودة وألا تتحلل؟! أذاك بسبب سحرهم أم بسبب شيء آخر؟ تساءلت ليليس. عم الصمت قليلا حتى تنهد المعلم واضعا الكتاب جانبا، وسار لخارج القاعة مجتازا ليليس:

"لنكمل ما جئنا لأجله"

تبعته ليليس، في هذه المرة سار مباشرة لمركز المقر دون استكشاف أي غرف أو قاعات أخرى بدربه، مما أربك ليليس فهي تعلم أنه أراد معرفة كل ألغاز هذا

المكان؛ فهو بالنسبة له كالأحجية التي طالما أراد حلَّها، لكنه الآن يتغاضى عن كل شيء كما أنه لا يراه فحسب!

"أيها المعلم ألن نلقي نظرة على المكان بأكمله أولا؟!"

"كلا"

أجاب باقتضاب وهو يصعد تلك السلالم باحثا عن المركز الأساسي لتلك الأنقاض.

"لكن لماذا؟! أليس هذا ما أردته؟!"

لم يجب لكنه هز رأسه ببطء ناظرا للأرض.

بعد مزيدٍ من الخطوات، وصعود عديدٍ من السلالم، وتجنب كثيرٍ من الأماكن وصلا أخيرا لما بدا أنه مركز أنقاض مقر الحالمين على حسب رأي المعلم، لشدة الغرابة بدا ذلك المكان كأنه لا ينتمي إلى حيث سارا من قبل؛ فهو بأي ظروف أخرى تكاد تجزم أنه سيحتوي على الحياة بصورة أو بأخرى، فعلى الرغم من أنه احتوى على بعض الحطام والصخور المهشمة، إلا أنه بدا حقا جميل المظهر؛ فهو واسع يحتوي على ثلاث مرايا خلابة المظهر كبيرة الحجم، إحداها بالواجهة، بينما الثانية والثالثة على جوانب القاعة، لم ترَ ليليس أبدا المرايا العظيمة، لكن حسب وصف الكتب، فتلك المرايا مشابهة لها بالمظهر، لكنها أصغر كثيرا بالطبع، فما قرأته أن المرايا العظيمة يصل ارتفاعها حد السماء، أعلى كل مرآة أحد الأحجار الخضراء المشابهة للجواهر التي رأتها عند دخولهم هذا المكان في البداية لكنها غير متوهجة، فلم يوجد ضوء هنا سوى بسبب بعض أشعة الشمس المتسربة من

شروخ بالجدران، على الأرض أمام كل مرآة مجرى مائي ضئيل للغاية، يصل في النهاية لمنتصف القاعة، حيث يوجد ما يشبه البئر الذي تصب فيه تلك المجاري المائية، تلك المجاري وذلك البئر كان الماء بهم نظيفًا للغاية بصورة غريبة حقا لا تتماشى مع كل ما عاهدوه حتى الآن بهذا المكان، وذلك أثار عدم الاطمئنان بقلب ليليس، فعلى الرغم من جمال المكان لكن هناك شيئا لا يريحها بذلك التناقض.

بدا على المعلم التفكير بشدة، ثم تنفس بقوة مخرجا تلك الحقيبة الصغيرة التي طالما تمسك بها للغاية ثم أخرج ما بداخلها، كانت قطعة ورق قديمة وشيئا آخر أمسكه بقبضة يده بقوة، لم تستطع ليليس رؤيته، ثم اتجه للبئر في منتصف القاعة، هم بإلقاء ما بقبضة يده بالبئر، لكنه توقف فجأة مستديرا جهتها بوجه شبه مرتبك:

"ليليس، أريدك أن تنتظريني بالخارج.."

دُهشت لما قاله، في الغالب لأطاعته فحسب لكنها لسبب ما خشيت أن يصيبه مكروه ما، تساءلت بحيرة:

"لماذا أيها العالم؟!"

تنهد ثم أجاب بحزم:

" لأني لا أريد أن تظلي هنا حتى أنتهي مما سأفعله، فقد يكون خطرا.."

خطرا؟! لم يتحدث المعلم عن أي شيء من قبل بتلك الكلمة حتى عند حديثه عن اتفاقه مع الأميرة دورسيرا الذي ربما يموت إذا لم يتممه! وصف المعلم شيئا بأنه خطرا الآن أصابها ببوادر الفزع.

"خطرا؟!"

كان السؤال موجه لنفسها أكثر مما كان موجها له، لكنه أومأ متحدثا بصوت جامد:

"أجل خطرا والآن انتظري بالخارج من فضلك"

لكنها لم تتحرك، لم تدر لمَ على الرغم من هذا الخطر الذي تحدث عنه فقد أرادت البقاء، أرادت البقاء برفقته، نظر جهتها ليجدها بذاك المظهر.

"ليليس، ارحلي"

"أيها المعلم، أنا.. أنا بوسعي مساعدتك فيما ستفعله.. بوسعي.."

همست بصوت متوتر؛ فهي لا تريد أن تتركه لذاك الخطر.

"أنا لا أحتاج مساعدتك، أريدك أن ترحلي!"

بدا صوته غاضبًا، شعرت بالحرج ولم تدر ماذا تفعل، تنهد المعلم واقترب منها:

"أنا لا أريدك أن تساعديني يا ليليس؛ لأني لا أريد أن ينتهي بك المطاف مثلي، سيكون ذلك أمرًا مخزيًا!"

نظرت له بغير فهم، كيف يقول هذا؟! إنه لشرف لها أن تصير في يوم من الأيام مثله أو حتى مقدار ذرة من ذاك.

"أيها المعلم، ليتني حتى أستطيع أن أصير مثلك، ليتني أستحق أن أصير مثلك.."

أردفت بكلمات متقطعة وصوت مستنكر؛ فهي لم تحسب أبدا أن تسمع شيئا غريب كهذا! ابتسم المعلم قليلا بحسرة ثم أجاب:

"قد تبدو الصورة الخارجية براقة أحيانا يا ليليس، قد يبدو الشخص كاملًا، صالحًا، فرحًا، قد يبدو أن لا غبار يشوبه، لكنها ليست سوى صورة زائفة، عند الموقف الحاسم تتضح حقيقتها، لقد عشت حياتي أبحث في الحضارات القديمة المختلفة، حتى جذبت انتباهي حضارة الحالمين، قرأت كل ما يخصها، وتعمقت بها للغاية حتى صرت أشعر أحيانا أني أحدهم، أني أنا الذي سيعيد مجدهم وحضارتهم الفانية التي لا يعلم أحدا ما أصابها، لقد قطعت دربًا طويلًا يا ليليس حتى أتي هنا، وأكتشف أن كل ما قرأته كان خاطئًا، هؤلاء ليسوا أشخاصًا هاجروا أو رحلوا لمكان غير معلوم، لقد تم قتلهم في عقر دارهم.."

تنهد ثم أكمل:

"بعد ما فعله هذان الحارسان في الدرب القاحل، وتركهما لنا لابد أنهما سيبلغان الأميرة أو يجدر بي القول الملكة دورسيرا بأننا من خنَّاهما كي يفرا من العقاب، وحتى إن صدقتنا نحن ولم تصدقهما، فلن تسامحني لعدم إيجاد حلٍّ لمشكلة ابنتها، لأنه ببساطة لا يوجد حل لأمر كذاك.."

شعرت ليليس بالدهشة، لماذا إذن؟! لماذا وافق على ذاك الاتفاق؟!

"لكن لماذا أيها المعلم؟!"

"أعلم سؤالك، لماذا وافقت؟! لأنه كان السبيل الأسهل، السبيل الأسرع، ولأن مع اقترابي للوصول، صرت لا أستطيع الانتظار ولا الصبر كسابق عهدي، صرت أريد الوصول سريعا بأي ثمن! عما قريب سيأتي شخص بمهمة القبض علينا؛ فامرأة كتلك لن تتركنا لحال سبيلنا؛ لذا عليَّ الوصول لإجابات، إجابات لكل ما بحثت عنه في الكتب طويلا لأجد الآن أن كل ما كان بتلك الكتب أكاذيب فحسب، ويجدر بي فعل ذلك سريعا كي نرحل قبل مجيء من ستبعثه الملكة، وعليَّ معرفة كل شيء لأني أعلم أنه لن يكون بمقدوري القدوم مجددا، ولا يوجد حل أمامي سوى استخدام ما ظننت أني أخالفه دوما.."

فتح العالم كفه لينظر لما يمسكه بداخله، ثم أنهى حديثه بما صدمها تماما:

"لا يوجد حل أمامي سوى استخدام السحر الأسود!"

سحر أسود؟! لم تكن ليليس الفتاة المؤمنة بالسحر والأرواح، ولم تكن غير المصدقة أيضا، دوما شعرت بالحياد حين يتم ذكر هذا الكلام، حتى سحر الحالمين صدقت بوجوده فحسب بسبب شغف المعلم بالحالمين وحضارتهم، لكن سماعها ما قاله المعلم لتوه أصابها بالرعب المهول، فالمعلم ليس شخصًا أبلهَ، هو يدري عما يتحدث تماما، أرادت أن توقفه، لم ترد له ذلك المصير لم ترد أن يضع نفسه بخطر كذاك، وفوق ذلك لم ترد أن يفقد كل ما آمن به يوما.

"أيها المعلم، أرجوك لا تفعل ذلك.."

أرادت أن تجد ما أراده، أرادت أن تفعل كل ما بوسعها كي يسعد فحسب ويتوقف عما سيشرع به، أكملت بصوت مرتبك:

"سـ.. سأبحث في المكان بأكمله، سأحاول، أن أجد حلًّا، أن أصل لما تريد، أعدك، أرجوك تريث فحسب قليلا"

ربت على كتفها وهو ينظر نحوها نظرته الحانية:

"لا أظن أنه إذا كانت لي ابنة كانت ستخشى أن يصيبني مكروه بهذا الشكل"

نظر أرضا ثم عاود النظر لها سريعا، بينما لم تتحرك عيناها من على وجهه، أكمل المعلم:

"لقد صدقتني منذ البداية، صدقتِ ما آمنت به، أريدك أن تنصتي إليَّ هذه المرة أيضا وتنتظريني بالخارج"

"لكن.."

"هل لديكِ حبر وأوراق بحقيبتك؟"

تعجبت من السؤال لكنها أومأت.

"جيد، أريدك أن ترسمي شكل تلك المرآة، التي سقطت منك وكُسرت في عاصمة (ليس الكبرى)"

عمت الحيرة وجه ليليس، ما علاقة المرآة بكل ما يحدث الآن؟! وكيف عرف المعلم بأمر مرآتها في الأصل؛ فهي لم تذكر هذا الأمر بتاتا.

"لا تحسبيني غفلت عن ذلك؛ فقد بدوت حزينة للغاية بعد رؤيتك لها مكسورة، ارسميها، ربما سنشتري مرآة مشابهة لها حين نخرج من هنا"

نظرت للأرض وأومأت، التف المعلم متجها للبئر بعد أن ربت على كتفها مرة أخيرة، نظرت جهته بخيبة أمل، تمنت لو يستدير لها ويخبرها أنه لن يفعل ما يوشك على فعله الآن، تمنت لو يخبرها أن تبقى، لكنه لم يفعل، اتجهت للخارج بخطوات بطيئة، سارت ونزلت السلالم حتى وصلت للمخرج، لكن الغريب على الرغم من بُعد المسافة، إلا أنها سمعت صوت المعلم يتكلم بلغة لم تفهمها، كان صوته عاليًا؛ مما أشعرها بالريبة خاصة لشعورها بأضواء الأحجار الخضراء تشع وتخفت تدريجيًّا، خرجت ليليس ناظرة للحدائق أمامها مجددا، فتحت حقيبتها غير ناظرة لها لتبحث عن قنينة الحبر، جذب انتباهها أحد السناجب الراكضة، لكن في أثناء متابعتها له وبحثها عن القنينة التي أمسكتها بيدها وأخرجتها دون النظر لها، لمحت زهرة صفراء مرمية في الأرجاء، لقد رأتها من قبل، اقتربت ليليس منها لتتأكد أنها لا تهذي، لكنها كانت حقيقية، حقيقية تماما، نظرت لها ليليس بتمعن محاولة تذكر أين رأتها من قبل، ثم شعرت أن صورة ما بدأت تكتمل بعقلها بمرور ذكريات محددة على التوالي بمخيلتها. "شعرت بالتعجب حقا رافعة الزهرة لبصرها أكثر، إنها بالفعل زهرة صفراء أو بنية ربما، لم تستطع الرؤية بوضوح، لكن لطَّخها شيء ما، شيء لزج بعض الشيء. أمسك بها المعلم ليساعدها على السير، رفعت ليليس يدها لتسمك بجبهتها فوجدت دماءً على يدها لا تدري ما مصدرها."

"هل أنت مصابة؟"

"كلا"

شعرت بثقل رأسها وبأنها لا تدري ما تتفوه أو بما تفعل، تسير فحسب إلى حيث يوجهها المعلم، ابتسمت ببلاهة مردفة:

"لقد وجدت زهرة صفراء، جميلة حقا"

"عمَّ تتحدثين؟!"

"لماذا قد توجد زهرة صفراء هنا؟!"

"أنت تهذين، لست مرتاحا لتلك الرائحة بالجو، يبدو أنها السبب في ذلك"

شعرت أن صوت المعلم صار أغلظ'

"نظرت ليليس باتجاه المعلم والحارس فوجدت الخيالات السوداء قد عادت مجددا، ولكن تلك المرة أحدها أخذ يقترب ويقترب، حتى رأته في صورة شخص حقيقي، ولكن الظلال أحاطت به، رأته يرفع خنجرًا ويهم أن يطعن به المعلم ران، انتابها الذعر مجددا وأرادت فعل أي شيء لمنعه، لم يكن بوسعها في ذلك الحين سوى رفع إصبعها والإشارة به نحوه بأسرع ما استطاعت، لمح الحارس إشارتها لينظر سريعا لجهة المعلم ثم يدفعه بسرعة جانبا ويبارز ذلك الشخص"

"كتاب تاريخ إخوة الظل الفصل ١١٢: تميز إخوة الظل بأسلوب خاص في القتال، عن طريق استخدامهم سمومًا تشوش رؤية من أمامهم حتى يظفروا به، كادوا يتغلبون على الشعبين بأسلوب القتال ذاك، لولا استعمال الشعبين

الأسود، لكن أسلوب قتالهم ذاك دُثر برفقة حضارتهم، أشخاص وحيدون هما من استطاعوا معرفته واستخدامه وهم.."

فتحت ليليس عينيها على مصراعيهما وهي تتذكر تلك الجملة التي قرأتها بكتاب تاريخ إخوة الظل، وتربطها بكل ما خطر ببالها للتو من ذكريات، "وهم، جماعة الزهرة الدامية القتلة المأجورين"

كان آخر ما تذكرته هي كلمات المعلم. "منذ ظهور المرايا والشعبين الأحمر والأصفر عرفا ما قد يسببه السحر، وصاروا يخشون كل ما يتعلق به ويحرمونه تماما يا ليليس، لذلك يعادون الجزء الجنوبي من القارة، لأن ممالكه تبيح السحر واستخدامه بكافة أشكاله". الشعبان سيفعلان أي شيء لمحاربة السحر المحرم، ومن يستعينون به حتى إن تطلب ذلك الاستعانة بالمحرمات بما فيهم القتلة المأجورين! شخص ما بعث قاتلًا مأجورًا لقتلها! شعرت ليليس بالبرودة تصيب أطرافها وبأوصالها ترتجف كما لو السماء تثلج. 'المعلم' كان ذلك هو ما خطر ببالها، وهي تنظر مجددا لذاك المدخل الكبير أمامها وتهرع لداخله صارخة:

"أيها المعلم!"

لكن بعد دخولها لم تجد ذلك الدرج الموجه لمكان المعلم، فقد صاروا سبعة أدراج، لكن كيف؟! لم تدرِ أيهم يجب أن تصعد، لكن عليها إنقاذه، عليها تحذيره. اختارت أوسطهم وركضت لأعلاه سريعا، بدا طويلا للغاية، لكنها ركضت بكل طاقتها حتى وصلت في النهاية لـ.. غابة؟! ما هذا؟ ما الذي يحدث؟! سمعت أصواتًا مريبة أصابتها بالقشعريرة، لكنها أكملت السير ببعض التوجس حتى

توقفت حينما أدركت أنها بمنتصف بقعة خالية من الأشجار، ويحيط بها ستة مرايا مهولة الحجم، شعرت بأنفاسها ترتجف من كل ما يحدث ذاك، هل تهلوس؟! هل اشتمت تلك الرائحة التي اشتمتها من قبل بالدرب القاحل؟! لكنها لم تسبب ذلك من قبل. عليها أن تصل للمعلم! سارت نحو إحدى المرايا، لكنها لم ترَ انعكاسها، فقد ظهر كل ما حولها إلا هي لم تظهر، بدا انعكاس السماء بالمرآة مختلفًا عما حولها، أخذت تنظر لأعلى حتى ترى نهاية علو تلك المرآة، لكنها وجدت السماء أعلاها قد تبدلت لتصير مشابهة للتي بالمرآة، بينما المرآة تحولت لجدار طوبي بالضخامة والهول نفسيهما، سمعت صوت طفل باكٍ، لكن ذلك لم يكن ما جمد الدماء بعروقها، ليس بقدر ما رأته وأفقدها القدرة على النطق والتنفس تماما، فقد وجدت أنها محاطة بجثث ملقاة بكل مكان، جثث متفحمة، جثث مشوهة وممثل بها، جثث خُلعت أطرافها، دماء بكل مكان، تساقطت دموع ليليس لا إراديا من فرط هول وبشاعة المظهر، لمحت على بُعد طفل ما يبكي، همت أن تناديه لكنها شعرت بمن يمسك بقدمها، لتجد أنه شخص بيد محروقة ونصف وجه محروق يشهق وهو يتساءل بصوت بالكاد يخرج:

"هل أبلينا حسنا؟!"

عند ذلك الحد شعرت بأنها سيغشى عليها تماما من فرط الرعب، أغمضت عينيها بقوة غير مدركة ما يجدر بها فعله، فلن يأتي حارس في هذه المرة لإنقاذها أو قبطان لنجدتها، أحكمت قبضتها على قنينة الحبر التي كانت مازالت تحملها منذ رؤيتها لتلك الزهرة، لكن تلك لم تكن القنينة، فللمرة الأولى تدرك ذلك منذ كل

ذلك الوقت، على الرغم من رعبها، وأطرافها المرتجفة والأصوات التي تهمس في أذنيها وما كان يمسك بقدمها منذ ثوان، وكل شيء يحدث، لم يسترعَ انتباهها في هذه اللحظة سوى ماهية ذلك الشيء الذي تمسكه، وضعت قبضة يدها أمام وجهها ثم فتحتها ببطء تزامنا مع فتح عينيها تدريجيا تجاهها، تأملت تلك القلادة ذات الزمردة الخضراء معيدة لها ذكرى ذلك الفتى الذي خدعها، لكنها أيضا أعادت لها ذكرى جميلة للغاية، حدثت منذ بضع أيام فحسب، لكنها ستظل محفورة بذهنها كأجمل ذكرياتها، ابتسمت لذلك، ثم لمحت ما خلف يدها، لم تكن سوى تلك البوابة الضخمة، المخرج من تلك الأنقاض، فقد اختفت الجثث والطفل والمرايا وكل شيء آخر، لكنها مازالت تسمع الأصوات الهامسة، بل إن أصواتًا أغرب وصلتها، كصوت شيء يصطدم بالحائط بقوة، وأصوات أشياء ما تسقط أرضا، وأصوات لم تستطع وصفها، لم تبدُ أنها تنتمي لهذا العالم، كل ذلك كان خلفها، يمكنها السير فحسب للخارج وستبتعد عن كل ذلك، نظرت للقلادة التي بيدها مجددا، بينما الأصوات تتزايد من خلفها، الخوف، الخوف هو المسيطر دوما، لكن في هذه المرة كان الخوف حيال المعلم، نظرت صوب الباب مرة أخرى مفكرة، كلا! هزت رأسها بقوة متجهة للداخل من جديد وهي تغطي كلتا عينيها بذراعها محاولة تحسس ذراع الدرج الذي لم تجد سواه في تلك المرة لتستند إليه، شعرت بما يشبه الهواء البارد يصيب أطرافها لكنها لم تتوقف، كانت الأصوات عالية للغاية وشديدة، كما لو أنها حولها تماما، فجأة شعرت بشيء ينكسر وشيء آخر يرتطم بالحائط بقوة، وأشخاص ينوحون بكلمات غير مفهومة،

كاد قلبها يتوقف من فرط الخوف، ولكنها أكملت شاعرة بدموع رعبها تنهمر على ذراعها، اركضي! عودي للخارج فحسب! هزت ليليس رأسها، كلا! كلا! بدأ صوت أنفاسها المرتجفة العلو مع الاقتراب أكثر فأكثر، كادت أطرافها تتجمد تماما من زيادة برودة الجو بشكل غير عادي، تستمع لتلك الأصوات التي لا تفهمها وهي تعلو، حتى تكاد تخترق أذنها وتصمها تماما، مزيدٌ مما يُكسر وما يصدم بالحائط بقوة، لكنها أكملت السير وصعود تلك السلالم التي لا تنتهي بصعوبة، لكنها لم تعد تشعر بأطرافها إطلاقا، وصار ألمٌ يجتاح جسدها بشدة بسبب البرودة حتى شعرت بأن جسدها يتقطع إربا وسقطت أرضا متأوهة وهي تلف ذراعيها حول بطنها وهمست بضعف:

"أيها المعلم!"

"ليليس؟"

فتحت عينيها إثر سماعها صوته الوهن ذاك، رأته جالسًا على الأرض مستندا لذاك البئر، وقد صار باهت اللون ذو ملامح منهكة، شعرت أن السعادة قد غمرتها لرؤيته هناك، سعادة جمعت الدموع بمقلتيها، حاولت الوقوف والذهاب نحوه سريعا متحاملة على آلامها، فهي تريد تحذيره والخروج به آمنا فحسب:

"أيها المعلم، هل أنت على ما يرام؟"

تساءلت بقلق وهي تنحني لتصل لمستواه.

"لقد أخبرتك أن تنتظريني بالخارج، لم يجدر بك العودة.."

"علينا الرحيل أيها المعلم، هناك خطر يهدد حياتك"

هز المعلم رأسه باستنكار وهو يضع يده على جبهته ليخفي الحزن البادي على وجهه.

"إن هذا بشع للغاية، ليتني لم.. لم أرَ.."

تحدث المعلم بصوت شبه باكٍ، لم تفهم ما الخطب أو عمَّ يتحدث، لكنها لملمت متعلقاته بإحدى يديها، وحاولت مساعدته على الوقوف بيدها الأخرى فقد بدا ضعيفا للغاية، استند المعلم إليها وهو مازال بحالة نفسية سيئة للغاية، لم تعهده بها مطلقا. سارا بعض الخطوات.

"علينا الرحيل، فإن.."

لم تكمل جملتها حتى أصاب المعلم دوار ما وكان على وشك السقوط، لولا إمساكها به مما أسقط القلادة الخضراء التي ظلت ممسكة بها من البداية.

"تشبث بي!"

حاولت الانحناء والتقاط القلادة من على الأرض ووضعها بحقيبتها سريعا، ثم لمحت ظلًّا ما على الأرض، لكنها لم تدرك بعد ذلك ما هذا المكان؟! ولماذا هي موجودة به؟! وبرفقة من جاءت؟! لم تتذكر سوى أن قلادة ما بها جوهرة خضراء سقطت منها، وأنها شعرت أنها يجب أن تحضرها لأنها هامة بالنسبة لها لسبب ما، ثم لمحت ظلًّا ما، ثم.. لا تذكر أي شيء آخر، كأن فجوة ما حلت محل تلك الذكريات، فجوة مشابهة لذكرياتها المفقودة حيال ما حل بوالدتها.. حاولت التذكر بينما يحاوطها الحطام والدمار، نظرت حولها فوجدت

شخصًا ما مُلقى بعيدا، كلا، كلا، هذا ليس حقيقيًّا، لا يمكن أن يكون كذلك، وضعت يدها على فمها من الفجعة، شعرت ببلل على وجنتيها جراء وضع يدها عليهما، رفعت يدها لعينيها، وجدتها مغطاة بالدماء، انتابتها حالة من الهلع والتقزز في الوقت ذاته، حركت يدها بسرعة لتمسحها في ثيابها لتجد أن مقدمة ثيابها مغطاة بالدماء حتى منتصف بطنها، شاعرة بالهول شهقت وهي تحاول أن تزيل تلك الدماء ولكن كيف؟! شعرت بالدموع تتجمع في مقلتيها وبرعشة يدها الشديدة، وكان قلبها ينبض بشدة.

"لماذا تصعبين الأمر على نفسك لا أدرى؟!"

صعقت لسماع ذلك، كان الصوت يشبه فحيح الأفاعي، نظرت حولها بهلع في كل ركن وكل موضع، لكنها لم تجد أحدًا فقد كان المكان واسعا للغاية، تشابكت يدها مقتربة من وجهها، وتساقطت قطرات دموعها عليهما، كاد قلبها ينفجر من كثرة نبضاته، سمعت صوت خطوات، ووجدت المكان حولها صار محاطا بالظلال، وخرج صوتها من حنجرتها متوسلا:

"أرجوك، لا!"

فجأة رأت شخصًا يخرج من ظل مقارب لها، معتدل الطول ورفيع بعض الشيء، هذا كل ما لمحته منه قبل أن تركض صارخة، ركضت بأقصى ما لديها، شعرت بأن قلبها سيخرج من صدرها من الرعب، أخذت تبكي بقوة، فجأة اصطدم رأسها أرضا، رفعته صارخة واجتاح جسدها ألم غير عادي، شعرت بأن يديها وقدميها يحترقان من كم الجروح التي أصابتها بسبب تعثرها بتلك الصخرة

الضخمة، كان هناك ألم بشع بجبهتها كذلك، وتبلل حاجبيها بالفعل جراء الدم المتساقط من الجرح بجبهتها، سمعت خطوات تسير باتجاهها، حاولت الاستناد والوقوف، ولكنها سقطت بعنف بسبب تلك المحاولة، فيبدو أن قدمها قد كُسرت، عند ذلك الحد صار الألم لا يوصف، رفعت رأسها قليلا بيأس، لا تدري ماذا تفعل، رأت أمامها زهرة صفراء امتزجت بالأحمر من الدماء التي تسقط من جبهتها، نسيت للحظة صوت الخطوات والجروح التي يمتلئ بها جسدها، والدم الذي يغطيها حين رأت تلك الزهرة بهذا الشكل، اتسعت عيناها وكأنها بدأت تستوعب شيئا ما، وأومضت في مخيلتها جملة واحدة كالشمعة البراقة 'الزهرة الدامية'، تتذكر الآن، لقد أتت لهذا المكان لتحذر العالم من قاتل من الزهرة الدامية، لكن أين العالم؟ لقد كان هو وليليس على وشك الخروج من هذا المكان، لكن حدث شيء ما لا تتذكره ليليس، ولم يعد العالم برفقتها، ماذا حدث؟! فجأة شعرت بمن يقف خلفها ثم أصابها ألم برأسها إثر شد شعرها بقوة للخلف، ووضع نصل بارد على عنقها، لم يعد هناك سوى الدموع الصامتة فحسب، ثم رعب لا مثيل له، لم تعهده من قبل، ولم تظن أن هناك رعب مماثل له، فقد بدا أنه قادم من الجحيم، يبدو أن الرعب لم يصبها وحدها، فقد شعرت بالخنجر على عنقها يهتز بعض الشيء كما لو أن ذلك القاتل أصابه بعض التوتر، قاتل من الزهرة الدامية ويصيبه التوتر؟! لا تفسير لذلك سوى أن الصوت الصارخ الذي سمعاه منذ ثوان قادم بالفعل من صُلب الجحيم، تكرر الصوت لكنه في تلك المرة كان أقرب وأبشع، وضعت ليليس يديها على أذنيها إثر ذلك، كلا! كلا! لا تريد

سماعه، فلتعد للأهوال التي أصابتها من قبل، فلتُترك وحدها في الدرب القاحل، فليتم سحق جسدها بالإصابات والكسور، فليفعل بها الفتى ثعبان البحر ما شاء، لكن لا تسمع ذلك الصوت مجددا أبدا، شعرت برأسها ترتطم أرضا إثر دفع القاتل لها بعنف، لكنها لم تهتم، ظلت واضعة يديها أعلى أذنيها وهي تنتفض بقوة من الهلع، رأت القاتل المأجور يتجه لمصدر الصوت ثم يختفي بعد ثوانٍ مظهرا خلفه عديدًا من الظلال، لكنها سريعا ما انقشعت إثر ارتطام القاتل بالحائط، فقد تم دفعه بقوة جبارة، رأته يحاول النهوض لكن يبدو أنه أصيب بشدة، لكن رؤيته تلاشت حين رأت ذلك الشيء الذى يقترب منه بلمح البصر، لم تستطع حتى النظر إليه فقد أبعدت نظرها سريعًا، فقد كان مسخًا، مسخا كل أجزائه ممزقة، متفحم كأنه خارج لتوه من نار الجحيم، ذو مخالب كالدب أو الذئب، بدا كالعذاب السائر على الأرض، حاولت الزحف مبتعدة، جسدها يحترق ويصرخ من الإصابات والكسر الذي أصاب قدمها لكن عليها الهرب! عليها الهرب من هذا الشيء فحسب! أخذت تشهق بقوة، لكن سرعان ما تحولت شهقاتها لصرخة عالية بسبب الكسر في قدمها، سمعت الصوت مجددا، صوت ذلك الشيء يتجه نحوها، لكنها لم تغطِّ أذنيها تلك المرة، بل أصابتها الهيستريا وهي تحاول الإسراع من تقدمها الذي لم يتعدَّ الخطوتين، على الرغم من كل المجهود الذي بذلته، في لمح البصر شعرت بجسدها يُرفع ويقذف كالجمرة ليصطدم رأسها بعنف بشيء ما ويزول كل شيء.

*****

"كلا، أرجوك توقف، لا يمكننا مساعدتك فحسب"

"إذن فلا حاجة لي بكم"

انسلت تلك الأصوات لأذن ليليس ميقظة إياها، لتجد نفسها عند مدخل مقر الحالمين، أين العالم؟ ماذا حدث؟! حاولت استجماع ذاكرتها عما حدث، لكن كل ما تذكرته هو أن المعلم أمرها بالانتظار خارجا، ثم بدأت تسمع أصوات غريبة، تتذكر أنها عزمت على العودة له في أثناء وقوفها في هذا الموضع، ثم استدارت لتفعل ذلك ثم.. ثم لا شيء، لمحت في الحدائق الموجودة أمام المدخل شيئًا ما لفت نظرها لتتجه صوبه في تعجب، وقفت هناك تصهل بقوة مئات الأحصنة السوداء، بدا شكلها مهيبًا بعض الشيء، من أين أتوا؟! أفزعها صوت صرخة قوية قادمة من داخل المكان، أين هو المعلم؟! أين هو؟! لم تدرِ ما الذي تفعله، لم تدرِ أي شيء سوى أنها وجدت قدميها تقودانها لا إراديا للداخل، كانت خفيفة كالريشة، لمحت في أثناء سيرها جثثًا ملقاة في الأرجاء، رأتها من قبل كعظام، لكن في هذه المرة رأت ملامحهم، رأت الدماء المتناثرة من أعناقهم، لكن ذلك لم يخفها، غريب، صعدت سلالم كثيرة ثم سمعت أصوات بكاء.

"سيتوقف كل ذلك بكلمة منك فحسب، يمكنك إنقاذ شعبك"

"الذي من المفترض أنه شعبك هو الآخر، لم أعد أرى لك سوى الندم المتبقي من عمرك على كل ما فعلته"

صارت الأصوات أكثر وضوحًا مع اقتراب ليليس لمصدرها، سمعت أحد الصوتين يضحك بسخرية:

"ترى لي؟! إذن لماذا لم ترَ لنفسك ما حدث اليوم لك ولشعبك، أحضر لي الآخر"

سمعت صوت امرأة تصرخ متوسلة:

"أرجوك، أرجوك، لا تفعل ذلك"

كانت ليليس قد وصلت بالفعل لمركز المقر، لترى ما يحدث الآن، رأت تجمعًا من الناس الذين يرتدون ملابس غريبة الشكل، تتكون من الأبيض والأخضر فحسب رجالًا ونساءً، ليست أعدادهم بالكبيرة، بل معتدلة، تقارب الخمسين، لم تبد ملامحهم واضحة للغاية، لكن ما بدا واضحا هي حالتهم النفسية المدمرة، فقد كان بعضهم يبكي بينما أغلبهم منكسَ الرأس، تتوسطهم امرأة عجوز بعض الشيء، ذات شعر أبيض طويل للغاية، رافعة رأسها بكبرياء مبدية وجهًا جامدًا، يحاوط هؤلاء الناس عديدٌ من الجنود ذوي أدرع سوداء تماما، لم ترَ ليليس مثلها من قبل، بينما يقف أمام تجمع الناس مجموعة من الجنود كذلك يتوسطهم شخص يبدو قائدهم، لا يرتدي خوذة حرب كجميع الجنود، لم تلمح سوى شعره الأسود كالفحم، نظرا لأنها كانت تقف خلفه، في الأطراف وجدت عددًا لم تستطع إحصائه من الجثث التي بدا أن بعضها قد حُرق، وبعضها قد مُثل به، وبعضها قد تم تعذيبه بضراوة، جميعهم من ذوى الثياب ذات اللونين الأبيض والأخضر، كان أحد الجنود يجر الآن رجلا منهم لمنتصف القاعة، بينما أخذت تتوسل امرأة بتركه، تم ركل الرجل لكي يصير مستندا على ركبتيه، بينما وقف

خلفه الجندي وهو واضع خنجرًا على حلق الرجل، ابتلع الرجل أنفاسه وحاول رفع رأسه بكبرياء، فجأة هرعت المرأة الباكية لقدمي العجوز متوسلة إياها:

" أرجوك، أرجوك، فلنفعل ما يريده فحسب، أرجوك، أتوسل إليك"

نظرت لها العجوز ببعض الأسى، لكن سرعان ما جذب انتباههم صوت الرجل الجاثي أرضا ويبدو أنه يوجه حديثه للعجوز:

"سيدتي فقط أخبريني، هل أبلينا حسنا؟!"

رفعت العجوز رأسها مجددا بشموخ غير مستجيبة للمرأة الباكية، وأومأت للرجل الجاثي، فأومأ لها بدوره، وظل رافعا رأسه بفخر، أخذت المرأة الباكية تنوح بقوة، بينما أشار القائد ذو الشعر الأسود برأسه للجندي الممسك بالخنجر، فقام بنحر عنق الرجل ليسقط على الأرض سريعا منتفضًا، إلا أن الحياة لم تكن غادرته تماما؛ فقام أحد الجنود بإضرام النار بوجه الرجل وإحدى ذراعيه سريعا ليصير مظهر ذلك الرجل في أثناء مفارقته للحياة وصوته الذي يحاول الصراخ من فرط الألم، لكنه لا يستطيع بسبب القطع الموجود بعنقه، منظر يُدمي القلوب، انتفضت جثة الرجل للمرة الأخيرة، وصار جثة بلا روح، ثم قام أحد الجنود بسحبها حيث توجد باقي الجثث، صرخت المرأة التي كانت تبكي من قبل بقوة محاولة الركض تجاه قائد الجنود وقتله فقط ليتم قتلها وسحبها لجهة الجثث هي الأخرى، مما زاد بكاء وصراخ تجمع الناس، ما هذه المجزرة؟! تساءلت ليليس بصدمة، ما الذي يحدث هنا؟!

"أرادت إنهاء حياتها سريعا، يا للخسارة"

أردف القائد. "إذن أيتها الحكيمة أستنصاعين؟!"

لم تتغير جدية العجوز وشموخها مما جعل القائد يتحدث مجددا آمرا جنوده:

"إذن أحضروا التالي!"

"ما تفعله لن يفدك بشيء!"

كان ذلك صوت شابة تقف بجوار العجوز تماما، وبدت تشبهها بعض الشيء، أشار القائد بيده للجندي بالتوقف عن جلب أحد الأفراد لمنتصف القاعة، تقدمت الشابة قليلا وبدت على العجوز علامات التوتر، أكملت الشابة:

"تريد إعادة مجد شعبك؟! كيف وأنت تبطش به؟! نحن من شعبك! يجدر بك حمايتنا ليس ذبحنا كالخراف، لم يكن أخاك (دوكتوس) ليفعل ذلك أبدا"

"أتتحدثين عن ذاك الخاضع الخانع؟! دوكتوس الذي أراد المحافظة على ما تبقى فحسب! أنا أريد إعادة ما ضاع وسأفعل ذلك"

"أنت تحتاج مساعدتنا وتقتلنا واحدا تلو الآخر، تعلم أننا لن ننصاع، والدتي وسيدتنا جميعا لن تنصاع، لن تستفيد بأي شيء حينما نكون جميعنا موتى"

عم الصمت قليلا ثم تحدث القائد:

"أهذه ابنتك أيتها الحكيمة، إنها تعجبني، ذكية حقا"

أومأ القائد ثم أكمل:

"حسنا يا عزيزتي، سأرى إن كانت أمك ستنصاع أم لا!"

ثم أشار للجندي بجلب الشابة لمنتصف القاعة، بدا الخوف على معالم العجوز مخفية خلفها أي شموخ أو كبرياء سابق، هزت الشابة رأسها لوالدتها بشجاعة

تحدث القائد مجددا:

"حسنا أيتها الحكيمة لنرى كمَّ ما قد تتحمله ابنتك"

سرعان ما التفت ليليس مبعدة وجهها عما شاهدته منذ ثوان، لكنها ظلت تسمع صراخ الشابة في أذنها يزداد وتزداد وطأته، ويزداد معه صرخات الموجودين، لكنه خمد في النهاية تماما، التفت ليليس مجددا بعد ثوان لتجد العجوز جاثية أرضا تتنفس بقوة، بينما يبدو على وجهها الدمار النفسي.

"إذن هل راجعتِ قرارتك أيتها الحكيمة؟!"

نظرت له العجوز نظرة بدا بها كمٌّ كراهية وألم غير عاديين.

"أنت وحش! أنت لست أفضل من الشعبين! أنت ببشاعتهما، وربما تزداد عن ذلك، تستحق كل ما حدث لك ولشعبك القذر!"

قالها أحد الرجال الواق"فين" في التجمع ثم بصق باتجاه القائد.

"أقدس بك أنت وشعبك أيتها الحكيمة شجاعتكم، إنها حقا مثال للفخر"

قالها القائد مشيرا للجندي بإحضار الرجل لمنتصف القاعة، هم الجندي بإعدام الرجل لكن القائد أوقفه:

"كلا ليس بالخنجر"

أومأ الجندي متوقفا، بينما أحضر له جندي آخر شعلة كبيرة الحجم، لم تستطع ليليس إكمال رؤية كل ذلك، كان أبشع مما ينبغي، همت أن ترحل بينما الصراخ يزداد، لكنها توقفت حين وجدت جنديًّا يدخل القاعة ساحبا امرأة خلفه

ترتدي شالًا ووشاحًا طويلين لونهما أسود، يبدو أنها تخفي شيئا ما بهما فقد بدا حجمها غير متناسق.

"أيها القائد، لقد وجدنا إحداهما"

نظر القائد للمرأة بينما تم سحب جثة الرجل بعيدا، في هذه المرة استطاعت ليليس لمح بعض ملامح الرجل، كانت نقوش سوداء لم تعهدها من قبل تغطي وجهه، بينما يغطي اللون الأسود أغلب عينيه، توقف أمام المرأة مردفا:

"لم أكره في حياتي أكثر من الخونة والمتخاذلين"

"أين الآخر؟!"

وجه القائد السؤال للجندي الذي أتى بالمرأة ذات الوشاح الأسود.

"لم نجد سواها حتى الآن، وجارٍ البحث عن الرجل الآخر، لكنك ستعجب حقا بما وجدناه برفقة هذه"

أمعن القائد النظر إليها ليجد أن شيئا ما يرتعش أسفل شالها.

"أخرجيه الآن!"

قال القائد آمرا، نظرت المرأة بأسى نحو العجوز لتجدها غير منتبهة لهم في الأصل، وتنظر جهة الجثث بغير تصديق، تنهدت المرأة ثم أخرجت طفلًا صغيرًا كانت مخفية إياه في شالها، صبي يبدو أنه لا يتجاوز الثلاثة أعوام يرتعش بقوة، حمله القائد متأملا ملامحه، ثم أخذ يضحك بقوة كأنه أدرك شيئا ما، ثم أشار للجندي بأخذ المرأة من أمامه آمرا إياه:

"اجلدها حتى لا تستطيع الوقوف على قدميها، لكن لا تقتلها، فيجب إعدام الخونة بيدي أنا"

اتجه القائد للعجوز متأملا الطفل وهو يقول:

"كانت والدتك حقا شابة شجاعة، سنرى إن كنت مثلها أم لا!"

صار القائد واقفا تماما أمام العجوز:

"أيتها الحكيمة، ألم تشتاقِ لحفيدك؟!"

نظرت الحكيمة جهته بصدمة وعيناها منصبة على الصغير بين ذراعي القائد، ابتعد القائد لمنتصف القاعة مردفا:

"إذن أيتها الحكيمة، بمَ تقترحين أن يتعرض له الصغير أولا، لا تقلقي سيتعرض لكل شيء، سأحرص أن يكون موته أبطأ ما يكون، لكن سأترك لك اختيار ما سأبدأ به"

توقفت العجوز سريعا متجهة للصغير، قام باعتراض طريقها أحد الحراس وهي تهز رأسها بغير تصديق، نظرت للجندي بغير تصديق ثم لباقي الجنود.

"لماذا؟! لماذا تتركوه يفعل ذلك؟! كيف تتركوه يفعل ذلك؟!"

لم يجب أحد من الجنود بعضهم خفض رأسه للأرض فحسب.

"لا تحاولي أيتها الحكيمة لن يعصوني، لقد حرصت على ذلك، لقد حاولوا الرفض، لكني علمت جيدا ما يسيرهم هو تماما ما يسيرك الآن 'العائلة'، 'الأحبة'، لن يروهم مجددا إذا عصوا، ماذا ألم تري ما حل بهم؟!"

أعطى القائد الطفل لجندي وكان على وشك الإشارة لجندي آخر حينما صاحت العجوز:

"كلا، لا يمكنك فعل ذلك!"

حينها ذهبت نبرة القائد الساخرة وتحولت لنبرة يملئوها الغضب والغل:

"أخبرني أخي عديدًا من الحكايات في صغرنا عن عظمة حضارتنا، عن مجدها، عن تقدمنا وازدهارنا، أخبرني كذلك أننا نعيش حروبًا في هذه الفترة حروبًا مع شعب حقير بقائدين، أحدهما أصفر العينين والآخر أحمر العينين، شعب يريد أرضنا وكل ما نملك، أخبرني أنها فترة من الزمن حتى نتخلص من هؤلاء القوم ونستعيد مجدنا، أخبرني أخي كذلك أن لديكم علم ورؤيا قد توقف كل ذلك وتنصرنا نحن، شعبكم، لكنكم 'لا تريدون إزهاق الأرواح' على حد قوله، لكن أتدرين ما لم يخبرني به أخي، أننا سنُهزم وسنلجأ نحن أصحاب الأرض لعمل هدنة مع الشعب الذي انقسم لشعبين لكي نعيش على أرضنا"

قهقه القائد بسخرية مكملا:

"أتتخيلين، لكي يسمحوا لنا بالعيش على أرضنا! ثم حين نحاول أخذ ما هو ملك لنا، الشعب الأحمر القذر يغتالنا ويضعف أعدادنا لتُدمر بصورة أكبر مما دُمرت بعد هزيمتنا الأولى، ثم نُطارد كالكلاب ويتم إحراق أعداد لا تُحصى منا وهم أحياء في أثناء هروبنا عبر الدرب القاحل، نصير منبوذين هاربين مختبئين في أقاصي الأرض التي هي ملكنا! وفي النهاية حجتكم لعدم مساندتنا في الحرب هي

أنكم ‘لا تريدون إزهاق الأرواح’؟! لقد قتلت أخي! أسرت عائلات جنودي! قتلت المئات وعذبت العشرات من شعبك! ولن أتوقف عند هذا الطفل!"

قال القائد مشيرا لحفيد العجوز:

"لن أتوقف حتى إن قتلتكم جميعا! لن أتوقف حتى إن دمرت هذه الأرض تماما! حتى وإن تحالفت مع الشيطان! حتى أسترجع مجد إخوة الظل وأدفن الشعبين تحت التراب!"

"لا تحتاج للتحالف مع الشيطان، ستراه إن نظرت في المرآة"

أردفت العجوز بهدوء، أومأ القائد ثم أشار للجندي الذي قام بدوره بإخراج خنجر والاتجاه صوب الصغير، ازدادت رعشة الصغير وأخذ يبكي، بدا أن العجوز تجاهد كي تظل متماسكة، نظر القائد نحوها وابتسم بسخرية وهو يشير للجندي بيده أن يتوقف:

"من المبهر رؤية قوتك أيتها الحكيمة؛ لم يكن جنودي حتى بتلك القوة حينما تعلق الأمر بأحبتهم! لكن لكل قوة حد ما!"

لم يكد القائد ينهي جملته حتى أخذ الخنجر من يد الجندي وقطع بها إحدى أذني الطفل الصغير سريعا، صرخ الطفل بصورة هيستيرية، بينما سال خيط من الدماء من موضع القطع، علت الشهقات وازداد ذوي الرداء الأخضر والأبيض ارتجافا وعويلًا، بينما بدأت أطراف العجوز نفسها بالارتجاف وهي تنطق بكلمات غير مفهومة بصدمة، أعاد القائد للجندي خنجره مردفا:

"الأذنان أولا ثم العينان ثم ما يليهما"

هم الجندي بالتوجه نحو أذن الطفل الأخرى.

"توقف، توقف، حسنا"

صاحت العجوز، أشار القائد للجندي بالتوقف، هدأت العجوز لوهلة ثم أكملت:

"هناك سحر يمكن لشعبي استخدامه لإفناء الشعبين، لجعلهم لا يملكون أرواحهم أو أنفسهم، لكن ليحصد ثماره عليك بالصبر.."

صمتت العجوز وبدا عليها أعتى علامات الندم، تحدث القائد:

"استمري بالحديث"

بدا أن العجوز تصارع نفسها كي تكمل حديثها.

"سنصنع المرايا العظيمة!"

دُهش من كانوا يقفون لجوارها من أتباعها لكنهم لم يعلقوا. إذن فالحالمون هم من صنعوا المرايا العظيمة، ما تراه ليليس الآن كان هو البداية للعنة التي يعاني منها الشعبان حتى الآن. أكملت العجوز:

"إنها مرايا سيعتمد سحرها على أرواح الحالمين الأحياء منهم والأموات، ستنص على قانون لابد أن ينصاع له الشعبان وإن لم يفعلا فسيفنيان"

"ما هذا الحل الغريب والكلام المبهم؟ وماذا إن انصاعا لذلك القانون؟!"

تساءل أحد جنود القائد لتجيبه العجوز بهدوء:

"وإن انصاعا للقانون فسيفنيان، وسيكون ذلك بيد أحد أطفالهم، وستكون علامته أنه رامي أسهم يرتدي السواد.."

عم الصمت لوهلة ثم تحدث القائد بحزم:

"أريد ما يدمر الشعبين تماما! لا أهتم بماهيته! فهل ما تتحدثين عنه الآن سيفعل ذلك بصورة مؤكدة؟"

"سأعطيك ما تريد! سأعطيك ما سيدمر الشعبين تماما!"

كانت نبرتها هادئة للغاية، رفعت العجوز نظرها، حسبت ليليس أن العجوز ستنظر للقائد، لكنها كانت تنظر لها هي.. لليليس! وفي عيونها رأت ليليس ما لم تستطع وصفه، بدا الأمر كسماع مقطوعة موسيقية حزينة في أثناء انهيار العالم، كالسير أعلى خيط رفيع في محاولة اجتياز المحيط، بينما الوحوش أسفلك تتربص بك، ففرصة النجاة شبه معدومة، لكن على الرغم من ذلك، فالهدوء هو الغالب، فأي شيء دون ذلك سيدمر القشة الأخيرة لعدم التحول للجنون. فجأة ابتسمت العجوز بلطف لليليس وهمست:

"مرحبا ليليس"

دُهشت ليليس لذلك، فكيف علمت تلك السيدة بوجودها؟! كيف عرفت اسمها؟! بل كيف سمعت ليليس ما همست به تلك المرأة في الأساس؟!

لكن ليليس سرعان ما شعرت بدوار تزداد حدته سريعا، ثم انقشعت الرؤية من أمامها لتُستبدل برؤية أخرى، لم يعد هناك أشخاص يرتدون الأبيض والأخضر ويتم ذبحهم، لم يعد هناك جنود ذوي دروع سوداء غريبة المظهر، لم ترَ سوى كائن بشع ينهش في فريسة ما في القاعة نفسها، كانت هناك دماء متساقطة من جبهتها شوشت الموجودات من أمامها بعض الشيء، شعرت بجسدها ينهض

مترنحا ليخرج من هذا المكان متجاهلا صوت الكائن البشع الذي صار تأثيره بها كتأثير صوت الرياح، لا شيء فحسب، لم يعترض مسارها أحد، فقط جثة لشخص تشعر كأنها كانت تعرفه، ربما في حياة أخرى، كانت قدمها تعيق حركتها وتصدر صوتا غريبا، صوت يشبه الطقطقة، لكنها لم تهتم، لم تشعر بها، لم تشعر بأي شيء، لم تشعر بذاتها، حتى وهي تخرج من ذلك المكان، لم تدرِ أهي من أخرجت نفسها أم شخصًا أو شيئا آخر، لم تدر أهي مخيرة أم مسيرة، لم تدرِ سوى أنها 'ستعيد الحالمين'

*****